

دُرُوسٌ مِنَ الْهَجْرَةِ ٧ مُحَرَّم ١٤٤٤ هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ بُعِثَ نَبِيْنَا ﷺ فِي مُجْتَمَعٍ يَعُجُّ بِالْخُرَافَاتِ وَالْبِدَعِ وَالْخَزَعِبَلَاتِ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّجَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْحَجَرَ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْأَصْنَامِ بِسَائِرِ الْقُرْبَاتِ وَالطَّاعَاتِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ ﷻ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّعْلِيقَاتِ الْحَسَانِ»، عَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُحَارِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»، وَرَجُلٌ يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ، وَقَدْ أَدْمَى عُرْقُوبِيهِ وَكَعْبِيهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُطِيعُوهُ؛ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: هَذَا غُلَامٌ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟ قَالَ: هَذَا عَبْدُ الْعَزْزِيِّ أَبُو لَهَبٍ

لَقَدْ أُودِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَذَى، فَقَالُوا عَنْهُ: سَاحِرٌ وَكَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ، وَحُبْسٌ ﷻ فِي الشَّعْبِ ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ، وَأُودِيَ مِنْ اتَّبَعَهُ - لَا سِيَّمَا مَنْ لَا عَصَبَةَ لَهُ - أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْأَذَى، أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةٌ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَامْنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ، فَامْنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِيهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَالْبَسُوهُمْ أَذْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ إِنْسَانٌ إِلَّا وَقَدِ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالٌ، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، وَأَخَذُوا يَطُوفُونَ بِهِ شِعَابَ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ.

وَعِنْدَمَا اشْتَدَّ الْأَذَى بِنَبِيْنَا ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ يُخَطِّطُونَ لِقَتْلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ

يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿١٠﴾ أذن الله تعالى له بالهجرة، وبات علي رضي الله عنه في فراشه تلك الليلة، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم وورى، ذهب إلى جهة الجنوب، إلى جهة غار ثور وهو يريد الهجرة إلى المدينة، ودخل الغار ومعه أبو بكر رضي الله عنه، واقترب المشركون من الغار حتى أن أحدهم لو نظر إلى قدميه أبصرهما، كما في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». وخرج رسول الله بعد ثلاث ليالٍ، واتجه نحو المدينة عن طريق الساحل، وتبعه سراقه بن مالك وأدركه، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتطمت فرسه إلى بطنها، فقال: إني قد علمت أنكما قد دعوتما علي، فادعوا لي، فالله لكما أن أردد عنكما الطلب، فدعا الله، فنجأ، فرجع لا يلقي أحدا إلا قال: قد كفيتكم ما هاهنا، فلا يلقي أحدا إلا رده.

عباد الله: لعلنا نذكر بعض الدروس المستفادة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها:

الأول: الصبر على الأذى في سبيل الله. فقد أذى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة وهو صابر محتسب، وأتته أنواع الأذى والسب والشتم، ووضع على ظهره سلا الجزور وهو صابر، وطرد من مكة وذهب إلى أهل الطائف، وأدموا عقبه الشريفين، ورأى أذى أصحابه رضي الله عنهم.

الثاني: الأخذ بالأسباب المشروعة. فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالأسباب المشروعة لنجاته، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل إن من تمام التوكل الأخذ بالأسباب، فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله عنه ينأى في فراشه، وذهب جهة الجنوب، واختبأ في غار ثور، وفعل الأسباب والوسائل التي تكون سببا لنجاته رضي الله عنه، وهو إمام المتوكلين وسيدهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافي.

الثالث: أهمية المؤاخاة في الله. فقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين الذين ابتغوا فضل الله ورضوانه،

وَنَصَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اسْتَقْبَلُوهُمْ بِالْحُبِّ وَالتَّرْحَابِ وَالْإِيثَارِ الْعَظِيمِ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتِ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَاَنْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقْهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ، فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَعَلَيْهِ وَضُرُّ مِنْ صُفْرَةٍ [أَي: أَثَرُ طِيبٍ يُصْنَعُ مِنْ زَعْفَرَانٍ وَغَيْرِهِ]، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَهِيمٌ» [أَي: مَا حَالُكَ؟]. قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ «مَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟» قَالَ: وَزَنَ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ».

إِنَّ تَارِيخَ الْبَشَرِيَّةِ لَمْ يَرِ مِثْلَ مَا وَقَعَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ حُبِّ وَبَذْلِ وَسَخَاءٍ، وَبِهَذِهِ الْمُشَارَكَةِ الرَّضِيَّةِ، وَبِهَذَا التَّسَابُقِ إِلَى الْإِيوَاءِ، وَاحْتِمَالِ الْأَعْبَاءِ.

الرَّابِعُ: الْيَقِينُ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه إِلَى أَبِي فِي مَنْزِلِهِ، فَاشْتَرَى مِنْهُ رَحْلًا، ... قَالَ - أَيُّ أَبَا بَكْرٍ - : فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعْنَا سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكٍ، وَنَحْنُ فِي جِلْدٍ مِنَ الْأَرْضِ [أَي: بِأَرْضِ صُلْبَةٍ]، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُتِينَا، فَقَالَ: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَارْتَطَمْتُ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوا لِي، فَاللَّهُ لَكُمْ أَنْ أُرَدَّ عَنْكُمْ الْطَلَبَ، فَدَعَا اللَّهُ، فَانجَا، فَارْجَعْ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَاهُنَا، فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ، وَوَفَى لَنَا. «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» كَلِمَةٌ يَتَجَلَّى فِيهَا صِدْقُ التَّوَكُّلِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ، وَالْيَقِينُ بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

الخَامِسُ: حُبُّ الْوَطَنِ. أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رحمته الله، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبُّكَ إِلَيَّ، وَلَوْ لَا أَنْ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اَعْلَمُوا رَحِمَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ أَنَّ مَحَبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَاجِبَةٌ، وَلَا يَكْمُلُ إِيْمَانُ الْعَبْدِ حَتَّى يُقَدِّمَ مَحَبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِهِ وَوَالِدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، وَفِي رِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقَالَ عُمَرُ: فَلَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْآنَ يَا عُمَرُ». أَيُّ: الْآنَ كَمَلْ إِيْمَانَكَ يَا عُمَرُ.

بَلْ إِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ اتِّبَاعَ النَّبِيِّ ﷺ عِلْمَةً عَلَى مَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ، وَكَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ، وَالِدِينَ النَّبَوِيِّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أَيُّ: يَحْصُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُحَبَّ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ، فَابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ «إِعْلَامُ الْمُوقَعِينَ»: قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ مَنْ اسْتَبَانَ لَهُ سُنَّةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَدْعَاهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَتَوَاتَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَاصْرُبُوا بِقَوْلِي الْحَائِطَ، وَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا رَوَيْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا وَلَمْ أَخْذْ بِهِ، فَاعْلَمُوا أَنَّ عَقْلِي قَدْ ذَهَبَ، وَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَا قَوْلَ لِأَحَدٍ مَعَ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. اهـ